فنون الإنسان في العصر الشبيه بالتأريخي (محاضرة ٦)

م. م. رويدة وعدالله محمد

يشغل هذا العصر المدة من ٣٥٠٠ _ ٢٨٠٠ق. م، ويعد مرحلة إنتقالية بين فنون العصور الحجرية(قبل التاريخ) والعصور التاريخية. ولقد إختلف الباحثون في تسميتهم لهذا العصر. فمن ضمن هذه التسميات التي أُطلقت عليه سُمي بالعصر الشبيه بالكتابي أو الشبيه بالتأريخي وذلِك لإختراع الكِتابة لأول مرة في تاريخ الحضارة في هذا العصر مِن قِبل السومريين الذين سكنوا القسم الجنوبي مِن وادي الرافِدين، إلا أن الكِتابة كانت صورية بسيطة ولم تُستخدم لِتدوين الأمور المُهِمة كأخبار المعارك وغيرها مِن الأحداث السياسية وإنما أستُخدِمت لِتَدوين أُمور إقتصادية تتعلق بأملاك المعابِد وأملاك الأفراد، أي أنها لَم تُستَخدَم لِغَرض التَدوين التاريخي، لِهذا سُمي هذا العَصر بالعصر الشبيه بالتأريخي، وهو يُمَثِل الطَبَقَتين الرابِعة والخامِسة مِن آثار(الوركاء) وآثار(جمدة نصر)، ونالت كُل مِن هاتين المدينتين شُهرة واسِعة في عالم الفنون، لِذلك يُسمى هذا العَصر أيضاً ب(عصر الوركاء وجمدة نصر).

ويُفَضل الإختِصاصيون في الوقت الحاضر أن يَدرسوا فنون هاتين المدينتين سوية. وسُمي هذا العَصر بِتَسمية سياسية وهي(عصر قبل السُلالات) وَيَقصد بِذلك المُدة الزمنية التي سبقت قيام سُلالات الحُكام المُتتابِعة أيام السومريين في أوائِل السومريين في أوائِل العصور التاريخية.

بدأت المُدن تظهر بِشكل واضِح في هذا العَصر، وَتَمَيزت المعابِد بأنها شُيدت على مصاطب إصطِناعية (الزقورات)، وَبُنيت هذه المعابِد بِقِطع مِن اللبن المُربَعة المَقطَع، لا سيما مَعبد الآلهة(أنانا) أو(عشتار) والإله(آنو).

وَمِن أشهر الآلهة وأكثَرُها ظُهوراً في الأعمال الفنية الإله(آنو) إله السَماء والإله أنليل) إله الهواء والآله(أيا) أو(انكي) إله المياه والآله(شمس) إله

الشمس والإله(سن) إله القَمر والآلهة(أنانا) أو(عشتار) ألهة الحُب والزواج أو آلهة الحَرب في بَعض الأحيان.

وَلم يَعتَقِد العِراقيون القُدماء بحياة ثانية بَعد الموت كما إعتَقد قُدماء المصريين، لذلك لَم يُعَبِرو بأعمالِهم الفنية ما يدل على طقوس أو فعاليات جنائِزية تتعلق بالدفن وزيارة القبور، فالحياة الدُنيا هي كُل شي حيث يُجازي فيها المُحسِن والمُسيء نتيجة لِما إرتَكَبَهُ مِن أعمال صلِحة أو سيئة، ألا إن سعادة الأرواح حسب إعتِقادِهم بعد الموت كانت تتوقف على ما يَبذُلُهُ الأحياء مِن عِناية في دَفن الموتى وعلى ما يُترَك في القبور مِن هَدايا.

يُعتَبر العَصر الشبيه بالتأريخي حُقبة مِن الحُقب الزمنية الغنية بإنتاجِاتِه الفنية قياساً بالعصر الحجري القديم والعصر الحجري الحديث، ففي هذا العصر شُيدت الأبنية المِعمارية الضخمة وبدأ نوع مِن التَحسُس الجمالي الجمالي في صِفَتِها. كما شَهِدَ هذا العَصر إنجازأروع أعمال النحت المُجسم، وَصورَت فعاليات الإنسان المُتَنوِعة في أكثر مَشاهِد النَحت المُجَسم إبداعاً، وتَجاوَزَ الرسام في أعماله على الفُخاريات إذ أوجد مجالاً آخر ألا وهو سُطوح الجُدران فأُنتِجت بِذلك أقدم الجِداريات المَرسومة في تاريخ العِراق الفني.

فن العمارة في العصر الشبيه بالتأريخي

تميز هذا العصر بالإهتمام الكبير بأبنية المعابد بإعتبارها بيوت الآلهة وأماكن عبادتها، فجعل لبعضها أُسس حجرية على الرغم من إفتقار مناطقهم للأحجار وكانت غايتهم إكساب تلك البيوت بالقوة والمتانة وَلِتُخَلد لأطول فترة زمنية لتتناسب بذلك مع خلود الآلهة ومن أبرز مميزات هذه الفترة تشابه مخططاتها الهندسية مع معابد العصر الحجري الحديث، وفي ذلك إشارة إلى تواصل وإستمرار أهم قوانين الفن المعماري.

معابد العصر الشبيه بالتأريخي

تتصف معابد العصر الشبيه بالتأريخي بما يلي:-

١ – تَتصف معابِد العَصر الشبيه بالتأريخي بِكونِها ذات أشكال هندسية مُنتَظمة تكون في أغلب الأحوال مُستَطيلة الشَكل وصغيرة الحجم نوعاً ما.

٢ – تُبنى على دكة أو مِصطَبة تُرصف مِن اللبن أي أنها كانت مُرتَفِعة عَن سَطح الأرض، فَهُنا يَتَوفر لنا أقدم دليل على فِكرة بِناء الزقورات في العِراق القَديم وإعتباراً مِن مُنتَصف الألف الرابِع ق. م كانوا يَرغبون بِصفة ثابِتة في بِناء سلم بين الأرض والسماء كي يُيَسروا به هبوط آلهتهِم، بِغض النَظر عَن كُلفة ذَلِك العَمل وَمشاق بِنائه.

٣ - تُبنى المعابِد بِنوع مِن اللبن مُستَطيل الشَكل مُربع المَقطَع تقريباً

٤ - يُحيط بِالمعابِد عادة جِدار خارجي ضخم نوعاً ما يَفصِل حرم الإله عَن العالَم الدنيوي تتجه أضلاعُه نحو الجِهات الأربع.

٥ – زينت المعابد من الخارج بعدد من الطلعات والدخلات وضيفتا إسناد الجدار معمارياً وتجميل وجهه الخارجي عن طريق عكس الظلال.

٦ - يحتوي الجزء الداخلي للمعبد على ساحة مكشوفة صغيرة طولية الشكل يحيط على طول ضلعيها الطويلين عدد من الغرف الصغيرة المُسَقَفة تُخصص أصغرها لوضع تمثال الإله المعبود، أما الأُخريات فَتُكرس لسكن الكهنة وخزن حاجيات المعبد.

٧ - ابتكر المعماريون العراقيون بتغطية الوجه الخارجي للجدار بطبقة من الجصع الناصع البياض، كان يجدد بإستمرار لإضافة بريقاً مدهشاً يزيد من جماله ويقوي صمود البناء أمام العوامل الطبيعية.

٨ - أوجدو وسيلة أُخرى في تزيين الواجهات بزخارف ملونة وبأسلوب جميل بإستخدام مسامير فخارية طويلة نوعاً ما وعريضة الرؤوس تلون بالآلوان كالأسود والأحمر والأبيض وتغرس بأنظمة هندسية متنوعة على واجة المباني لتؤدي زخارف هندسية ملونة رائعة الجمال.

٩ - تبنى معابد هذا العصر الشبيه بالتأريخي إما قُرب الزقورة فتكون معبداً أرضياً تابعاً للزقورة أو تُبنى في مكان خاص بعيد يُكَرَس لعبادة إله من الآلهة أو مَلك من الملوك.

١٠ - نالت مدينة الوركاء شهرة واسعة في مجال العمارة إذ أَنها أُخرجت إلى النور ضمن أَسوارها الأسطورية أَوسع وأَفخم وأَجمل الأبنية الدينية التي تم اكتشافها حتى الآن ومن أشهَرها معبد الآله آنو(المعبد الأبيض) ومعابد الألهة أنانا(عشتار).